الفصل العاشر

العاصفة الرملية

لم نكد نغادر النفود باتجاه **جبل الطويل** الذي يبعد نحو مئة وخمسين ميلاً حتى بدأ مطر خفيف بالهطول. وبدا قوس القزح فوق الكثبان كسيف معقوف برّاق وأخذ الرعد يقصف من بعيد. وصاح فارس «يا قدير! الصوت المبارك الذي يعدنا بالمرعى». وانخفضت السحب حتى لامست ذيولها الرمادية قمم الكثبان. ولمع البرق المتشعب وقصف الرعد بكل جلاله يهز الهواء. تساقط البَرَد الصغير ثم انفجرت السحب بعدئذ. بدأ الرمل بالغناء تحت سياط المطر، وتجعد وبر الجمال المبتلة نحو الأعلى، وبدأت ملابسنا تقطر كما لو أننا انتشلنا من الماء.

وسرعان ما انتهى الطوفان وأخذ هواء دافىء في الهبوب يجفف الإنسان والحيوان. وعادت الشمس تسطع من جديد. ولم يحن وقت الظهيرة إلا وكان العميق هو الشاهد الوحيد على هطول المطر.

وبعد يومين هبطنا إلى الأراضي المنخفضة، وشعرنا بالرياح الخانقة التي تحمل سحباً كثيفة من الرمال، وتحملنا اليوم الأول منها على الرغم من أنها هبت بقسوة وبدون انقطاع. وفي اليوم التالي تطورت إلى عاصفة رملية عنيفة لدرجة يكاد المرء لا يستطيع البقاء في **الشداد**. واقترحت العودة إلى النفود والبقاء هناك

في غور عميق حتى تنتهي العاصفة إذ إنّ المرء في أمان في الرمال الحمراء نظراً لأن كثافتها النوعية أكبر كثيراً من الرمل الأبيض أو الأصفر، وهي مكسوة بالخضرة إلى حد مابعد الأمطار الشتوية.

ولكن رفاقي ارتأوا أن حدة العاصفة قد انكسرت، وأنها لن تدوم أكثر من يومين، ولذلك استمرت مسيرتنا آملين أن تشرق الشمس في الغد ثانية فوق أرض هادئة. لكن اليوم الثالث كان تكراراً لليوم الثاني: رياح هوجاء عاصفة، وسحب ورمال مندفعة، والرؤيا متعذرة لأكثر من عشر خطوات.

كان بالإمكان احتمال الحر، ولكن الهواء كان حاراً ورطباً لدرجة جعلتنا نتصبب عرقاً من كل مسامات جسمنا. ولم يكن بالإمكان جفاف العرق في هذا الهواء الحار الرطب. وإلى هذه المتاعب أضيف التخرش الرملي. كان ذلك جديراً بالنسبة للجزيرة العربية فمهما ارتفعت درجة الحرارة كنت أجد الهواء جافاً. حتى في الشتاء بعد المطر أو العاصفة الرعدية فالهواء يبقى خفيفاً ومنعشاً.

وبعد شبه الاختناق في النهار تجمدنا حتى العظم في الليل بفعل تلك الهبات الجليدية التي لسعت أجسامنا وجعلتها ترتجف من القشعريرة. تشققت أيدينا ووجوهنا، حتى ألسنتنا أخذت تؤلمنا على الرغم من وفرة الماء. ونفذ الرمل الأبيض الناعم إلى كل مكان: تحت الثياب، في الأنوف، في الآذان، في العيون وغطى الشعر. أصبحت شفاهنا جافة، **وحميت** عيوننا وحلوقنا وحناجرنا من الالتهاب والألم، وأصبح التنفس لهاثاً ونبض الدم في القلب والصدغين.

وجرّت جمالنا نفسها بأقصى جهد تئن وتشتكي. وفي أحد الخروج حملنا أحد العبيد الذي انهار من الإنهاك في اليوم الثاني لمسيرتنا.

وعانى فارس أقصى المتاعب من نعاماته الصغار وإطعامها. ولكنه على الرغم من العاصفة نجح في تدبر العلف لها وأحضر شيئاً ما: يرقات، خنافس، أعشاب خضراء وغصينات، سحلية، بيض الحباري. وعدة مرات في اليوم يوجه بضع دفقات من الحليب من ناقته (التي ولدت كما ذكرت) في أفواه النعامات المفتوحة. وعلى الرغم من كل جهوده فقد أودت العاصفة بحياة واحدة منها.

وفي اليوم الثالث من العاصفة مرض فارس بنوبة مفاجئة: التقيؤ أولاً، تبعته قشعريرة وحمى بقيت بجانبه، ولكنه ضعف لدرجة خطيرة حتى اضطرنا إلى استعمال الخرج كنقالة لحمله.

في الليل هدأت العاصفة قليلاً ولكننا لم نرَ أي أثر للنجوم. كان الليل مظلماً وبارداً واستمر الرمل في الهبوب.

وفي اليوم الرابع جنّت العاصفة من جديد وصفرت الريح أعنف من السابق. وكادت الرمال **تملأ رئاتنا**، وتلمسنا طريقنا بعد أن أعيتنا الصدمات والسهر المستمر وآلام المفاصل والإنهاك الشديد. وسقط جملان فاضطررنا لتركهما ووزعنا راكبيهما وحمليهما على بقية الجمال المنهكة. وأسوأ من هذا كله أن فارس أخذ يهذي. وفي خرج جمل آخر جلس العبد ذادان (الذي أصابه المرض قبل يومين) في ذهول تام أقرب إلى الموت منه إلى الحياة.

وأخيراً بدا شيء ما عبر سحب الرمال الكبريتية اللون. وبدأت ملامحه تتضح حتى تحول إلى شكل متجسد يبعث على الراحة. إنه جرف صخري وملجأ أمان. تجمعت الجياد على بعضها بينما صفرت العاصفة فوقنا حاملة الرمال عبر قمة جدار الملجأ. وغاص الرجال والحيوانات المنهكين في الأرض.

أما فارس الذي كان ممدداً على **السجادات** فقد غطّ في نوم شبه الغيبوبة. حاولت تبريد جبهته المحترقة وأسقطت بضع قطرات من الماء بين شفتيه الجافتين. وبعد بضعة ساعات استيقظ وهو يبدو أحسن من السابق وعليه علائم المعافاة. أما الآخرون فقد استلقوا على جلود الخراف كالمقعدين الذين ينامون كالأموات. وأخيراً استندت إلى مها وغلبني النوم.

استيقظت في الليل ولأول وهلة ظننت أنني في حلم، فقد أطلت سماء صافية متلألئة بالنجوم على قفر غارق في هدوء تام. أزحت فروتي التي أتدثر بها ونهضت لأعتني بمريضي. وعندما انحنيت فوق فارس فتح عينيه وكلّمني. شكراً لله. إنه أحسن حالاً في الجسم والعقل. وشكواه المريرة الآن هي الجوع والعطش، فحضّرت له كل ما يسدّ حاجته. وبعد أن قدمت العون إلى ذادان (الذي

تحسّن أيضاً وأصبح قادراً على تناول الطعام) لففت نفسي ثانية في فروتي، وفي الحال عدت إلى نوم عميق.

وانبلج الصبح فوجدني نصف مستيقظ وواع إلى حدٍ ما على الرغم من أن عيني مازالتا مغلقتين، ولكن ما أزعجني هو أن مها بدأت تشمني باستمرار. ولما لم تكن لدي أدنى رغبة بالنهوض دفعت برأسها بعيداً. ولكنها استمرت تشمني وتشكو برقة ذات معنى حتى اضطررت لفتح عينيّ اللتين وقعتا على منظر جديد. كانت الجمال جاهزة للرحيل، وفارس ـ لم أكد أصدق عيني ـ يطعم نعاماته، وذادان يسقي الجياد، ومناحي يمشي بين صفوف الجمال حاملاً عباءته التي تحولت إلى كيس، وناثراً من الغصينات التي جمعها للجمال. وقرب «نار القهوة» قرفص رالب يغلي القهوة المُرَّة التي عطرت نكهتها الجو.

طلعت ثانية الشمس على عالم متجدد لانهائي الأبعاد يكشف عن جو شفاف بعد أن صقلته عاصفة الأيام الأربعة.

* * *